هيلين كيلر

البطولة والإرادة

obeikan.com

ربما يتحمل الإنسان فقد حاسة من حواسه التى يعيش بها.. أما أن يفقد الإنسان ثلاث حواس فى وقت واحد – السمع والبصر والنطق – فإن المعجزة تتمثل فى كيف يعيش ويتغلب على محنه.. ويتحدى قدره

تلك هى المحنة التى عاشت بها امرأة عجيبة ملأت العالم حياة ونوراً وإيمانا طوال القرن العشرين، هى: هيلين كيلر..

وقصتها قصة صراع وتحدٍّ وبطولة وإرادة.. قصة امرأة رفضت أن تستسلم وتنطوى تحت ظلمات الليل.. قصة بطولة نادرة حطمت بها أقفاص الألم العاتية.

ولدت الطفلة هيلين فى ٢٧ يونيو عام ١٨٨٠م فى إحدى مقاطعات أمريكا.. ولدت سوية كاملة كما يولد الأطفال.. لم تكن تشكو أي قصور فى حواسها.. ولكنها على العكس تماماً.. بدأت تنطق فى شهرها السابع وكانت أول كلمة نطقتها (الماء.. water) بل مشت فى سن مبكرة.. وكانت شعلة من الحيوية والنشاط. تجرى وراء الفراشات فى الحديقة وتحاول الإمساك بها، بظلال الأشجار وهى تتلاعب على وجه الأرض.

وربما تنظر إلى القمر فتري فيه ملامح وجه بشري.. فتتأمله وتتحاور معه..

وقبل أن تبلغ عامها الثاني أصيبت بمرض شديد شخصه الأطباء بالحمى الدماغية فقدت على أثره حاستي

السمع والبصر.. ولا مفر بعد ذلك أنها تصبح بكماء.

وهكذا نجت الطفلة من الموت لتدخل فى ظلمات طفولة عابسة..

ونمت الطفلة بسرعة.. لكن روحها المرحة وطاقتها المختزنة وحيويتها الشديدة ذابت جميعها بسرعة فى نوبات هياج وبكاء.. وكثيراً ما كانت تلقي بنفسها على الأرض.. وتطلق صيحات لا يمكن السيطرة عليها.

وتقرأ الأم كتاب ديكنز (مذكرات أمريكية) ومنه عرفت قصة الصماء البكماء العمياء لورا بريد جمان.. كيف استطاع معهد بركنز أن يعالجها.. على الفور أخذت الأم ابنتها هيلين إلى معهد بركنز.. فرشح لها فتاة أيرلندية تخرجت فى المعهد.. لتكون رفيقة لهيلين.

كانت آن سوليفان هى المرشحة لعلاج هيلين.. لقد كانت فتاة كبيرة القلب واسعة الصدر.. علمتها تجاربها التى مرت عليها كيف تتحمل وكيف تصبر.. وكيف تقاوم اليأس فقد حرمت من أبويها وهى طفلة ودخلت ملجأ للأيتام هى وأخوها.. وكانا يبيتان فى غرفة موحشة لازدحام الملجأ بالأولاد، ثم مرضت فى الرابعة عشرة إثر موت أخيها وأوشكت أن تفقد بصرها.. لكن تحسن بصرها وأكملت دراستها فى معهد بركنز للعميان حيث تعلمت القراءة بحروف برايل.. ومن ثم لبت آن طلب المعهد لتكون معلمة لهيلين.

وجدت آن تلميذتها هيلين لا تعرف شيئا عن الحياة.. لقد كانت أمام حيوان إنساني.. يحطم كل شئ.. ويغضب من كل شئ.. ويحشر الطعام فى فمه حشراً.. ويصرخ بلا سبب.. ويضرب كل من يقترب منه.

هكذا كانت هيلين.. ومن ثم كانت أمام آن مهمة شديدة الصعوبة.. حاولت أن تكتب حروفاً على ذراع هيلين لتعبر بها عن أشياء مثل لعبة أو عروسة.. بعد أسبوعين صحبتها آن إلى الحديقة وراحت ترطب وجهها بالماء الحسن البارد.. وبينما يتدفق الماء على يد هيلين كانت آن تخط فى بطء فوق ذراعها الأيسر حروف كلمة (ماء).. وفجأة أشرق وجه هيلين فقد أدركت أن كلمة (ماء) تعنى ذلك الشئ الذى يتدفق على يدها.

كانت هذه التجربة فاتحة المعرفة لهيلين.. فما إن عادت إلى البيت حتى صارت تلمس الأشياء.. وآن تخط بأصبعها على يدها اسم هذا الشئ، وخلال ساعات قليلة عرفت ثلاثين كلمة جديدة.. وفى نهاية الشهر الثالث كانت حصيلة هيلين من الكلمات ٤٠٠ كلمة، وبدأت عن طريق اللمس تقرأ بطريقة برايل.

وفى العام العاشر من عمرها طلبت من معلمتها أن تدربها على النطق.. إنها تريد أن تسمع صوتها إلى العالم.

تم ذلك فى معهد بركنز.. وفى مدرسة هوراس مان للصم فى بوسطن، أخذت هيلين تتعلم كيف تستطيع أن تحس بيديها حركات الشفاه والفك الأسفل أثناء النطق.. ونجحت هيلين.. وتقدمت.. وفى طريق العودة همست هيلين فى أذن آن (أنا لست بكماء).

وبدأت تحسن التحدث يوماً بعد يوم بمساعدة آن سوليفان.. حتى قهرت هيلين الصمم بالبراعة فى قراءة الشفاه عن طريق الذبذبات.

صار حلم هيلين أن تدخل الجامعة.. ففي عام ١٨٩٦م دخلت مع معلمتها مدرسة كامبردج للبنات وصارت تقرأ وتكتب بسرعة مدهشة.

ثم دخلت معهد راد كليف وتخرجت بعد أربع سنوات حاملة شهادة بكالوريوس فى العلوم.. وقد تعلمت خلال هذه السنوات الألمانية والفرنسية واللاتينية.. ثم حصلت على الدكتوراه من جامعة تمبل فى فيلادلفيا.. وكانت رسالتها بعنوان (الرسالة الإنسانية).

ثم كرست هيلين حياتها بعد ذلك لدراسة مشكلات مكفوفي البصر ومعاونتهم على الحياة.. ومن أجل ذلك سافرت إلى جميع بلدان العالم تلقي محاضرات وتجمع المال لمساعدتهم.

وفى عام ١٩٣٦م تلقت هيلين أكبر صدمة فى حياتها بوفاة معلمتها آن سوليفان نلك السيدة التى قالت عنها:

إنهـا النـور الـذى أضـاء حياتـي ودنيـاي.

وكانـت هيلـين قـد سـئلت عن سـر حبهـا لآن فقالـت: إنني أديـن لهـا بـكل شـئ، لأنهـا نقلتـني مـن مرحلـة الجمـادات إلى مرحلة الأناسـي.

زارت هيلـين كل مـدن العـالم.. وزارت مصـر.. وجلسـت إلى طـه حسـين.. وتبـادلاً حـواراً طويـلاً.. وألقـت عـدة محاضـرات فـى الجامعـة.

وقـد ألفـت هيلـين عـدة كتـب مهمـة مثـل: قصـة حياتـي – التفـاؤل – العـالم الـذى أعيـش فيـه – أغنيـة الجـدار الحجـري (شـعر) – السـلام عنـد الغـروب – يوميـات هيلـين كيلـر – ليكـن عندنـا ثقـة وإيمـان.

وفـى يونيـه عـام ١٩٦٨م – قبـل شـهر مـن بلوغهـا سـن الثامنـة والثمانـين توفيـت هيلـين كيلـر.. ولسـان حالهـا يقـول:

"هنـاك سـعادة كـبرى فـى إنـكار الـذات ومقاومـة الصعاب، لهـذا أرانـي أحـاول أن أجعـل شمسـي الداخليـة ضـوءاً فـى عيـون الآخريـن.. وسـعادتي النفسـية بسـمات علـى شـفاهم.